عندما يكون الأنا آخر..

في «صبح جميل» لمرغريت يورسينار

When the I becomes the Other
In Margaret Yousinar' s "Beautiful Morning"

تأليف. كلود بينوا

ترجمة. أ. نور الدين الطالبي

باحث من المغرب

noureddinetalibi@gmail.com

عندما يكون الأنا آخر..
في «صبح جميل» لمرغريت يورسينار

تأليف. كلود بينوا

ترجمة. أ. نور الدين الطالبي

"إننا متشابهون ونسير نحو النهايات نفسها"

الملخّص:

ينطلق هذا البحث في بناء تصوراته النظرية من اعتبار الأنا واحدة ومتعددة في آن. وهي فكرة جوهرية تغطي بشكل ضمني جميع الأعمال الروائية لمرغريت يورسنار. وهي واحدة من حيث كونها المصداق الواقعي للوجود الشخصي وهي متعددة من حيث كونها وعيا فلسفيا مدركا كتفاعل بين الذات ومتغيرات العالم الخارجي. وهذا الإدراك الواعي للذات هو ما تحاول شخصيات يورسنار الروائية الوصول إليه من خلال النظر للأنا كآخر لا بوصفه وجودا ثابتا وجوهريا مرتكزا على اليقين (النسب الدين الوطن الجنس...) ولكن بوصفه بحثا مستمرا محكوما بالصيرورة والتحول المتأثرين بعوامل المحيط، أي بشبكة العلاقات التي تنسجها الذات مع الآخر الذي يعبرنا ويشكل جزءا من كينونتنا. والشخصيات الرئيسية في روايات يورسنار تعي ذاتها وتكتشفها انطلاقا من رؤيتين مختلفتين. فأدريان وناثاليان وزينون تستكشفها باللجوء إلى السيرة الذاتية أي بإعادة النظر في ماضيها (أفعالها في علاقتها بالآخرين)، بينما يستكشفها لازار بالنظر إلى الاحتمالات الممكنة التي يمنحها له المستقبل والمرتكزة على الأنماط الإنسانية التي يجسدها على خشبة المسرح.

Abstract:

In building its theoretical conceptualizations, this research proceeds with the following consideration: the ego is, at the same time, unique and multiple. This core idea covers, in an implicit manner, all of Marguerite Yourcenar’s fictional works. On the one hand, it is considered unique in terms of it being the realistic validation of personal existence; on the other hand, it is considered multiple since it constitutes a philosophical awareness that is perceived as an interaction between the self and the variables belonging to the external world.

This self-conscious perception is what Yourcenar's fictional characters attempted to achieve through the consideration of the ego as the other, not in terms of its characteristic as a static and core existence based on certainty (descent, religion, homeland, gender...), but through approaching it as a continuous research governed by both processing and transformation, both of which are influenced by environmental factors, that is, by the network of connections established between the self and the other, the latter crosses, in fact, our identity and forms part of our being.

In reality, the main characters in Yourcenar's novels are aware of their beings and discover them from two different perspectives. As a matter of fact, Adrian, Nathalian and Zinon explored their respective selves by resorting to their respective autobiography, that is to say, through reconsidering their past (i.e., their actions in relation to their interactions with others); meanwhile, Lazar explores its self by looking at the eventual possibilities that the future may offer and is putting ahead of him, those possibilities are based on the human patterns that he embodies on stage.

1– مقدّمة:

تطرح أستاذة الأدب الفرنسي بجامعة فالانسيا "كلود بينوا" في هذه المقالة إشكالية الهوية كما تمثلتها شخصيات مارغريت يورنسار الروائية بدءا بالشخصيات التاريخية (أدريان وناثاليان وزينون) في تأمّلها لذاتها ومحاولاتها بناء صورة عن شكل وجودها في العالم، انتهاء بشخصية الشاب لازار في القصة القصيرة "صبح جميل" (une belle matinée) الصادرة عن دار كاليمار سنة 1982.

والمقالة تفكيك للتمثلات السائدة التي تحصر مفهوم الهوية في محددات الجنس والدين والانتماء اللغوي والجغرافي كمعطيات ثابتة وجاهزة بل وسابقة حتى على فعل الوجود ذاته. غير أنّ يورنسار تطرح الهوية في أعمالها من منظور إبستيمي يجعل الوجود سابقا للماهية. فتتحدّد الهوية وفق هذا المنظور بوصفها تجربة وجودية، وبناء متجددا الآن وهنا، متغيّرا بتغير الوضع البشري، مجاريًا للتحولات الزمنية، ومتأثّرا بطبيعة العلاقة بين الأنا والآخر: العدو الأنطولوجي للذات. وفي قصّة "صبح جميل"، تعكس شخصية الشاب لازار مختلف التحولات الهوياتية التي تعيشها الذات من خلال التفاعل النشيط مع الشخصيات التي مثلتها على خشبة المسرح في مختلف تجلياتها. فهوية الطفل تتشكل وتتحقق، عند بدء الوعي بها، ومن خلال جدليّة علاقاته بغيره من الشخصيّات التي يتعامل معها في كلّ مرحلة من مراحل طفولته، وهذه العلاقات الوثيقة بين الهوية والغيرية هي ما يروم هذا البحث الوقوف عنده في روايات يورسينار وتحديدا في نصها الروائي الأخير: "صبح جميل".

2– نص المقال المترجم:

يغطي موضوع الهوية بشكل ضمني عمل يورسينار الروائي كله، وهذا ما يفسر، دون شك، مقاربات نقد الهوية اليورسيناري المختلفة والمنجزة بمناسبة عقد لقاءات وندوات دراسية في الدول الأكثر تباينا ومنها: **السيرة الغيرية والسيرة الذاتية** (فالنسيا، اسبانيا 1986)، **الكونية في أعمال يورسينار** (تينيريفي 1993)، **التعبير عن الذات في أعمال يورسينار** (بوغوتا 2001)، وأعمال أخرى. فالشخصيات الروائية الرئيسة في أعمالها تتساءل بالفعل، في لحظة من لحظات وجودها، عن هويتها الخاصة.

غير أن الفرد، في وعيه بذاته، يضع نفسه في مقابل الآخرين، وفي مقابل الأشخاص الذين عبروا حياته: أسلافه ومعاصريه، ويدفعه تساؤله إلى أن يعي ذاته في علاقتها بهذا الآخر. ومن البديهي أن تكون العلاقة بالغير جوهرية في بناء الهوية وضروريّة في الآن ذاته، لأن كل هوية إنما تتشكل استنادا إلى الغيرية، أو إلى أنواع مخصوصة من الغيرية، وفي علاقتها بالآخرين وعلى ضوء نظرتهم الخارجية .

وقبل أن نعرج على مثال الشاب لازار وعلى أمثلة أخرى نراها مجسدة لفكر يورسينار في الموضوع، فنحن ملزمون في خطوة أولى بتقديم بعض التدقيقات الاصطلاحية حتى نتجنب الاستعمالات الموغلة في التعميم وغير الدقيقة لمفهومي: الهوية والغيرية.

3- الهوية:

لا بدّ من التنويه إلى وجوب التعامل مع مفهوم الهوية بحذر وتفكير كبيرين قبل استعماله وهو أمر نبّه إليه ليفي شتراوس في مقالته «الهوية» بقوله: «تُختزل الهوية بشكل ضيق في كونها معطى جاهزا أو ثابتا أكثر من كونها إعادة تشكيل وإعادة بناء... وكل استعمال لمفهوم الهوية ينطلق من نقد هذا المفهوم» (ليفي شتراوس، 1977، 58).

يعرف معجم **le petit Robert** الهوية بكونها: «سمة الشيء الذي يظل مطابقا لذاته»، غير أن هذا التعريف لا يسعفنا، فالمصطلح يتجاوز كل محاولة لتعريفه ليبقى غامضا وعصيا على الحصر.

وتعتبر الهوية من الإشكالات المؤسسة للفلسفة، فقد رأينا أنّها من المواضيع التي أثارت نقاشات كثيرة بدءًا بالمقولة القديمة «اعرف نفسك بنفسك»، انتهاء بنظريات الفيلولوجيين. وهوية الشخص حسب التصور الماهوي أو التصور الأرسطي تطابق ماهية ثابتة وحقيقة دائمة، تكتسب وجودها من ذاتها ولا تحتاج إلى شيء غيرها لتوجد. وقد أعيدت مساءلة هذا التصور، وفُرضت تصورات جديدة بداية من العصر الحديث، وخاصة بعد أفكار ديكارت وهيوم مرورا ببرغسون وهوسرل وسارتر وليبيانسكي وريكور وغيرهم. غير أنّ هذه المفاهيم الجديدة ظلت محطّ تشكيك، بل اعتبرت متناقضة كما بين ذلك رونان لوكواديك **Ronan Le Coadic** في مقالته الموسومة بـ: هل يجب التنكر للهوية؟ (رينان لوكواديك2007، 41-46) .

غير أننا حاولنا، من جهتنا، أن نجد حلولا لبعض التناقضات التي تعيق كل محاولة لتعريف الهوية، وقد بيّن ريكور**Ricoeur** أنّ «*النقاش* حول الهوية غالبا ما يكون ضبابيا بسبب الالتباس بين استعمالين مختلفين للمفهوم: الهوية بوصفها تطابقا والهوية بوصفها اختلافا» (بول ريكور1990، 42). ويبيّن هذا الأخير السبب الذي يجعل من الفرد ذاته وليس غيره .

وسعينا، من جهة أخرى، إلى التمييز بين أنواع كثيرة من الهوية: الهوية الشخصية والجماعية والدينية والاجتماعية والجنسية وغيرها...

وقد حُسمت مسألة التناقض الظّاهر للهويّة الجماعية (أن تكون مطابقا ومختلفا)، إذ يستلزم بناء هذه الهوية، من حيث الظاهر على الأقلّ، حركة مزدوجة أساسها التّقابل بين الانصهار والتّماثل من جهة (تماثل الفرد مع أعضاء الجماعة التي ينتمي إليها)، وبين الاختلاف والتّفرد من جهة أخرى (اختلاف الفرد مع الذين لا يشكلون جزء من جماعته)، ولا تلغي أي حركة، بأي وجه، الحركة الأخرى.

وتنضاف إلى صعوبة التعريف صعوبة أخرى، فالهوية الشخصية بعيدا عن كونها ثابتة ونهائية تطرح نفسها بوصفها سلسلة من البدائل الدائمة، أو بكونها نتيجة متغيرة لتطور لا ينتهي، فهي تدخل في دينامية وتتصل بوعي شخصي. من هنا، فإنّ الأنا متغيرة وغير قارة ولا يمكن أن تكون أبدا نفسها، إنها موضوع متسلسل من بناء تعريفٍ للذات، وهدمه، وإعادة بنائه، مدرك كتوتر بين ما أنا عليه وما سأكونه. وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار العامل الزمني والتحولات التي يحدثها مرور الوقت، والتغيرات الجسدية والنفسية التي

تعرفها الشخصية، والتجارب المعاشة، وكل ما يمكنه أو أمكنه إحداث نمو في هوية الشخص وفي وعيه بذاته .

4- العلاقات بين الهوية والغيرية:

الغيرية حسب التعريف المتداول هي مفهوم فلسفي يدل على «سمة ما هو آخر»، إنه مرتبط بإدراك العلاقة مع الآخرين في اختلافهم، ويقابل الآخر الهويةَ بما هي سمة الشيء الذي يحكمه التطابق. وهذا مصدر التقابلات التي تحكمها ثنائية الاختلاف مقابل التشابه في كل الميادين، تنوع الأوضاع مقابل وحدة الوضع، واختلاف اللغات مقابل وحدة اللغة، واختلاف الشكل الجسدي مقابل المماثلة، وتنوع ثقافي مقابل ثقافة مشتركة، والغرابة مقابل القرابة، والابتعاد مقابل الاقتراب، والمتعدد مقابل الواحد أو الوحيد .

وقد تبدو عبارة أرتور رامبو الشهيرة «**الأنا هو آخر**»، في رسالته التي بعث بها يوم 15 ماي 1871 إلى بول دامني، عبارة متناقضة لكونها تسائل الحدود بين الهوية والغيرية مع الإبقاء على التعارض داخل ألفاظ العبارة نفسها، وتستدعي مثل هذه العبارة إدراك الذات في علاقتها بنفسها وفي علاقتها بالآخر أيضا.

وتبين الأعمال الجادة اليوم أنّ الهوية غير منفصلة عن الغيرية وعن العلاقة بالآخر، وتلك الأعمال هي التي أعطت للهوية معناها كما يبين (إريك إريكسون 1970، 49). وهكذا، يظهر سؤال الغيرية وثيق الصلة بمفهوم الهوية، فلا وجود للشخص إلا في علاقته مع الآخر وفي تعارضه معه، فبناء الهوية في الحقيقة هو تأكيد لجانب من الاختلاف الدال .

يحمل مصطلح الغير معنى (الآخر) الذي يقابل على العموم الذات. فالآخر ليس أنا، إنه آخر غيري، والأكيد أن فجوات تفصلنا، إلا أن شيئا ما مشتركا يجب أن يكون بين الذات والآخر لكي يتحقق التواصل بينهما، فيجب إذن أن تكون «سمة واحدة» وتكون هذه السمة الواحدة نفسها ظاهرة عند الآخر. يوجد أمامي، بغض النظر عن كل اختلاف، كائن بشري من لحم وعظم، تجمعني به الطبيعة البشرية ذاتها وينتمي إلى الوضع البشري نفسه. فالطبيعة تنشد الاختلاف (التركيب الوراثي، والتربية، والتاريخ) ولكنها لا تنشده إلا داخل الوحدة. يتوضّح إذن وجود تداخل بين الهوية والغيرية .

غير أننا يمكن أن ننظر إلى الغيرية، في معناها الحالي، من زاوية أخرى وهي زاوية التقابل بين الفاعل (ضمير المتكلم "أنا") وبين فاعل آخر، وضمير متكلم آخر مختلف عن ذاتي .

غير أنّ الاختلافات بين الناس لا حدود لها، أوليس البحث عن المشترك الذي يوحد الناس في ضوء التنوع الذي يسم كل فرد منهم هو السؤال الحقيقي الذي يجب طرحه؟ لقد فهم "سارتر" (Sartre) المطلوب فهما جيدا عندما كتب :

«إذا لم يكن بالإمكان وجود جوهر كوني في كل إنسان فيوجد، مع ذلك، طابع كوني للوضع البشري. وليس من قبيل الصدفة أن يتحدث المفكرون المعاصرون باستعداد أكبر عن الوضع البشري أكثر من حديثهم عن الطبيعة البشرية. ويقصدون بالوضع، بوضوح نسبي، مجموع الحدود التي ترسم مسبقا وضعية الانسان

الأساسية في الكون. فالوضعيات التاريخية تتغير، أما حاجته إلى أن يوجد في العالم ويعمل فيه ويعيش وسط الآخرين ويموت بينهم، فهي الثابت الذي لا يتغير» (سارتر 1967، 67-69) .

ولا يمكن أن نتجاهل في الختام، كما رأينا للتو في تأملنا للهوية، العامل الزمني، فالغيرية تزداد بمرور الزمن بالمعنى الذي أكون فيه أنا الآن آخرا أنظر إلى ذاتي التي كنتها في الماضي بوصفها آخرا. فأنا لم أعد ذلك الذي كنته، أنا الآن مختلف عنه، ولكن، هل يمكنني أن أكون آخرا إذا لم أبق الشخص السابق ذاته؟ علينا إذن أن نقبل استمرار شيء وحيد ضمن مسار التغيير .

نريد، انطلاقا من هذا التأمل الوجيز أن نبحث كيف قدمت -أبرزت أو ألغت-مرغريت يورسينار (Marguerite Yourcenar) هذه التناقضات في بعض رواياتها وخاصة في قصتها القصيرة "صبح جميل (**une belle matinée**) التي تطرح فكرة تلخّص مجموع أعمالها الرّوائيّة وهي: "الوحدة والتّعدّد في الأنا".

5– من أنا؟ :

يسأل الإنسان منذ وجوده السؤال ذاته: من أنا؟ إنّه يسائل نفسه في محاولة للتعرف عليها وفهمها. تقول يورسينار على لسان **أدريان**:**Hadrian** «يمر جزء كبير من كل حياة، وحتى أقصر جزء جدير بالنظر، في البحث عن علة الوجود وعن نقطة البداية وعن الأصول» (مرغريت يورسنار 1974-35.) فالكاتبة تولي أهمية كبيرة للبحث عن معرفة الذات، تسأل شخصياتها في لحظة من لحظات حياتها هذا السؤال وتحاول، بالرجوع إلى ماضيها، أن تكتشف هويتها الحقيقية وشخصيتها وسماتها المميزة .

وعندما يبدأ أدريان، في رسالته إلى مارك اوريل، بسرد قصة حياته يلجأ إلى السيرة الذاتية ليعرف نفسه وليكتشف الجوانب الخفية من هويته عبر مساءلة أفعاله وأفكاره: «لا أدري إلى أي نتيجة يقودني إليها هذا الحكي، أراهن على مساءلة أفعالي لكي أعرف نفسي وربما لكي أحاكمها أو على الأقل أن أعرفها جيدا قبل وفاتي» (م. يورسنار 1974-29، 30.)

وحتى زينونZenon نفسه كان يتساءل في تجربة الرواق عن ماهية وجوده ولغز شخصيته. وفي عزلة جزيرة فريزيا وسكونها، يطرح ناثانيال Nathaneal في أعماقه السؤال نفسه: «ولكن، من كان في البداية ذلك الشخص الذي كان يشير إليه بوصفه ذاته نفسها؟» (م. يورسنار 1982- 197). وحده الشاب لازار الذي لم يهتمّ بموضوع هويته، إذ لم يصل بعد إلى العمر الذي يسمح له بأن يعي ذاته، فالبالغون هم الذين يتساءلون عن أصوله وعن عائلته لأنّها علامات هويته: «هل تعيش مع والديك؟ أعيش مع جدتي. - ماذا عن أمك؟ - لقد شنقت أمام الملأ (...) –ووالدك؟ لا أعلم. ليس لي أب على ما أظن.» هكذا يجيب الطفل (م. يورسنار 1982-221.). تتألف عائلته الجديدة التي تبنته من جماعة هجينة من الممثلين، وهي عائلة لا تشبه، في شيء، العائلات التقليدية.

يبدو أن الكاتبة تحاول أن تبين أنّ دور الآباء ثانوي جدا في تشكيل هوية الأبناء، وتؤكّد أنّها لم تعاني قط من فقدان أمها طيلة طفولتها ومراهقتها. فنحن نرتبط بالعائلة التي تحضننا عن طريق الصدفة وحسب

الظروف، وقد لا ترضينا هذه العائلة أو قد تضع مسافة بيننا وبينها، ذلك ما تجتهد الكاتبة في بيانه عن طريق إعادة بناء جذور الأب والأم في «متاهة العالم **le labyrinthe du monde**. فهي لم تشعر قط بالانتماء إلى عائلة محددة: «أنا أنتمي إلى الجوهر الانساني أكثر من انتمائي إلى عائلة واحدة أو أكثر» (م. يورسنار 1980-217.)

وتُظهر شخصيات يورسينار التخييلية فك الارتباط نفسه مع الأسلاف، فلا شيء يربطها في الحقيقة مع عائلاتها، لذلك لا يمكنها أن تنسب الخصائص المشكلة لوجودها وشخصياتها إلى عامل الوراثة أو إلى التربية الأسرية.

ولا يذكر أدريان والديْه في قصة حياته، ويشكل ابناه بالتبني أنطونين ومارك أوريل وصديقته بلوتين ومحاميه أنتينوس الجماعة المختارة من أقربائه .

وزينون اليتيم زنيم كذلك، فهو لم ير قط الأسقف الايطالي، ولم يسع الأسقف يوما إلى التعرف عليه، ولم تعتن به والدته هيلزوندا كثيرا فقد ماتت في ريعان شبابها. ويعتقد ناثاليان من جهته، أنه لم يخرج من صلب «كبير نجاري الأوراش الأميرالية المرح، ولا من زوجته البوريتانية المذهب». ولأنه كذلك «فقد عبر فقط من خلالهم إلى الوجود «(م. يورسنار 1982-97.). أما الشاب لازار فقد قال هو الآخر الكثير عن حالة اليتم التي عاشها .

وبالإضافة إلى ذلك فقد تجلّت شخصيّات أدريان وزينون وناثاليان ولازار، مع اختلاف منهجهم، شخصيّات متنقلة لا جذور لها، فهي مسكونة بالسفر والحركة. فأدريان، ذو الأصول الاسبانية وأكثر الأباطرة نزعة إغريقية، اختار أن يجعل إقامته الرسمية في روما، وجال كل أقاليم الامبراطورية وزار أراض بعيدة، وحرره حبه للحرية من كل ارتباط ومن كل انتماء ومن أي التزام بالحدود .

وزار زينون بلدانا عديدة متوقفا في الساحات الشمالية والشرقية ليعرض خدماته وينصرف إلى تجاربه. وناثانيال الذي أبحر عدة مرات وانتهى وحيدا في جزيرة قاحلة. ورغم حداثة سنّه سافر لازار إلى لندن، وقادته المغامرة إلى هانوفر ثم إلى الدنمارك والنرويج وكان سعيد جدا بالأفق الذي فتحته أمامه حياة التجوال الجديدة المليئة بالمفاجآت وبالعوالم المجهولة.

6- قابلية اختراق الحدود :

تبدو يورسينار كما لاحظنا في شخصياتها رافضة لكل ما يرسم الحدود، إقصاء أو تمييزا، وهي تعلن نفسها معارضة لكل نزعة تخصيصية: «أنا أرفض كلّ نزعة تخصيصية سواء نزعة الوطن أو الدين أو النوع(م. يورسنار1980 -283). ولا أهمّيّة لديها للجنسية ولا للعرق ولا للمعتقد في ما يخص الوعي الذي يحمله الفرد عن هويته =، وقد أكدت ذلك في عملها "العيون المفتوحة" **(les Yeux ouverts)**: «أدين بديانات متعددة، كما أن لي أوطانا كثيرة، وقد لا أنتمي لأي منها وان كان لها معنى» (م. يورسنار 1980، 333). إن هوية الشخص لا تحدد بالدين ولا بالوطن ولا بالعرق كما هو واضح عند يورسينار التي نشأت في الديانة الكاثوليكية،

واهتمت بعد ذلك بالثاوية والبوذية ووظفت في كتابها "ذكريات مبجلة" **souvenirs pieux** حكمة من حكم "الزن" البوذيين، وقد تمكّنت عبر هذا المزيج الديني من الاحتراز من الدوغمائيات والأفكار السائدة.

إن الانتماء إلى دين أو إلى آخر لا يعتبر محددا للفرد في شيء، ومشاعر الأخوة والصداقة والحب والعاطفة تتجاوز خيارات الأديان والأعراق والأصول الجغرافية والانتماءات السياسية. ويمكن للفرد أن يرى في الآخر الغريب بشكل جيد انعكاسا لذاته، فناثاليان يشعر أنه أقرب إلى اليسوعي الذي مات بين ذراعيه من إخوانه في الدين «كان يرى في اليسوعي الشاب أخا رغم عباءته الدينية ورغم أصوله الفرنسية» (م. يورسنار 1982 -198، 199). وتقارب زينون وكبير طائفة الفرنسيسكان وصارا صديقين لإحساسهما بتقاسم المعاناة ذاتها، فقد شارك المتدينُ الفيلسوفَ الملحدَ اهتماماتِه وطموحاته، ووحدتهما عاطفة قوية رغم اختلافهما الإيديولوجي.

واكتسب ناثانيال تدريجيا من خلال تأملاته الفردية هذه الرؤية الكونية، وشعر منذ أن عاش في جزيرة فريزيا أنّ السمات المميزة للعالم المحيط به تتلاشى تدريجيا «حتى المراحل العمرية والأجناس وصولا إلى الأنواع، كلها بدت له أكثر قربا مما نعتقد عن بعضها البعض: طفل أو شيخ، رجل أو امرأة، الحيوان أو ثنائي الأطراف الناطق الذي يعمل بيديه، كلهم يشتركون في شظف العيش وحلاوته» (نفسه).

لقد أثيرت سلفا إشكالية الجنس والنوع في كتاب الكيمياء السوداء **L’Oeuvre au noir** خلال محاورات زينون مع كبير القساوسة، فالإنسان والحيوان والنبات وكذلك المعدن قد يشتركون جميعا في «روح الكون**Anima Mundi**» نفسها (المحسوسة والمدركة نسبيا والتي تشارك فيها كل الأشياء: «وأنا بنفسي حلمت بالتأملات الصامتة للأحجار»/ عترافات سبستيان طوس (م. يورسنار 1968- 203.)

علينا أن ندرك إذن أن سر الحياة واحد سواء عند الإنسان أو الحيوان، ونقرأ في **<u>مملكة الحيوان:</u>** «المعجزة التي يلمسها الطفل والإنسان البدائي على السواء هي أن الروح والأحشاء وطريقة الهضم والتوالد نفسها(مع اختلاف في التفاصيل الوظيفية) تعمل من خلال هذا التنوع في الأشكال شبه المحدودة، وبقدرة لا نملكها أحيانا، وينطبق الشيء ذاته على العواطف المتدفقة من هذه الأحشاء (...) إذ نجد الاختلافات ذاتها من نوع لآخر ومن فرد داخل هذا النوع إلى فرد آخر مثل ما هي عليه الاختلافات عندنا بين إنسان ذكي وآخر غبي» (م. يورسنار 1980-319)

ولا اعتبار لاختلاف الأعمار كما نعلم حتى عند يورسينار، فهو أمر ثانوي وعرضي «لم يراودني قط الشعور بالاختلاف بين الأعمار، ولا أشعر به بتاتا» (م. يورسنار 1980-23.). وتضيف يورسينار «لم أشعر بأية مرحلة عمرية». لقد كانت ترى نفسها في الثالثة عشر من عمرها مكافئة لأبيها، ولا اعتبار بالنسبة إليها إلا «للخلود والطفولة» (نفسه). وحسب هذه الرؤية يمكن للطفل لازار أن يحس نفسه صديقا للممثل العجوز هربرت مورتيمر .

ويمكن لأدريان أيضا أن يتقاسم حياته مع يافع وسيم، ويخصه الأخير بحب أعمى ميؤوس منه، ولا شيء في هذا يدعونا إلى الاستغراب .

غير أن المثال الأبرز نجده في قصة صبح جميل حيث يختفي مفهوم العمر تماما، ويسمح العرض المسرحي للممثلين بتقمص كل هوية سواء أكانت هوية شاب عاشق أم هوية عجوز، فالممثل يتحرّر من عمره ليلبس عمر الشخصية التي يلعب دورها. حيث أمكن لهربرت مورتيمر رغم تقدمه في السن أن يؤدي دور القيصر كما أشار إلى ذلك مسير الفرقة للمدير: «على كل حال، يعلم الجميع أنه ليس في العمر الذي يسمح له بتقبيل ديسديمون... - آه. هل تعلم.؟ دع عنك العمر في المسرح، وحتى في الحياة...» (م. يورسنار 1982-219). بهذه العبارة (وحتى في الحياة) يعلن الكاتب عن تفاهة هذا المعطى الذي غالبا ما يميز كل واحد منا، ولكن المسرح يسمح بإبراز نسبية هذا المحدد البيولوجي مادام أن ممثلا بسيطا يستطيع خداعنا بخصوصه.

«لم يكن هربرت متقدما في السن مهما بدا شاحبا ومنكسرا، فقد كان صغيرا جدا ورقيقا عندما أراد ذلك، مثل أطفال ادوارد الذين قتلوا في القصر، وكان خفيف الظل وضاحكا مثل بياتريس [....] وكان يبدو في الخامسة عشرة في تلك اللحظة. وكان عمره ألف سنة، وكان شيخا كبيرا في اللحظة الأخرى التي كان يبكي فيها على مملكته الضائعة وعلى ابنته المتوفاة» (نفسه 227).

وينطبق الأمر ذاته على الهوية الجنسية، فلم يكن اختلاف الجنسين عائقا أمام شخصيات يورسينار. فهي تؤكد ذلك بشكل حاسم: «لا تعتمدوا علي لتشخيص الخصوصية الجنسية، فأنا أعتقد أن امرأة فاضلة تعادل رجلا فاضلا، وأن امرأة ذكية تعادل رجلا ذكيا. إنها حقيقة بسيطة» (م. يورسنار 1980- 283.)

تنسجم شخصيات يورسينار في علاقاتها العاطفية بشكل كلي مع هذه الفكرة، فقد أحب أدريان مواطناته الشابات، وجاهر بعلاقته الغرامية مع زوجة أبيه بلوتين، وأحب بعاطفة جياشة خدمه وعشيقه الأخير أنتينوس .

وزينون، بدوره، مع أنه الأكثر تجسيدا لهذا المجال، كان يود استدامة علاقته بالسيدة فروزو التي قد يكون أنجب منها طفلا، ولم يمنعه هذا من أن يعيش علاقات غرامية متعددة مع فتية صغار (جيرهارد، أليي، إريك)، أو مع من صادفهم من النساء هنا وهناك مثل كازيلدا بيريز أو الشابة الأسيرة تحت أسوار مدينة بود (Bude). ورغم اختياراته في هذا المجال، عند جون ميير، فقد استسلم مرتين لجاذبية كاترين التي لا تقاوم. ويحاول الكاتب أن يظهر من خلال كل ذلك، وبشكل قطعي، أن الرجال والنساء كائنات بشرية قادرة على استثارة الرغبة والعاطفة والحب، وبالنسبة إلى الفيلسوف فـ «متعلقات الجنس أقل اعتبارا مما يفترضه العقل أو لا معقولية الرغبة: كان يمكن للسيدة أن تكون صاحبا، وكانت لجيرارد نعومة الفتيات..» لم يكونوا جميعهم سوى «وجوه مختلفة لكائن واحد هو الإنسان» (م. يورنسار *1968- 170.)*

وقد قلل ناثانيال بدوره من شأن هذه الاختلافات كما رأينا للتو، وربط، خلال فترة شبابه علاقات دورية مع الفتيات اللواتي عرضن عليه، ومع الرجال الذين لفتوا انتباهه مع أنه يفضل «الأثداء الصغيرة الرطبة مثل الزبدة والشفاه الناعمة والخصلات الوثيرة مثل رقائق الحرير» (م. يورنسار 1982-108.)

غير أن الطفل لازار الذي يتدرب ليصبح ممثلا يعد المثال الأبرز، فقابلية الأجناس للتبادل في القصة تأخذ قيمة مثالية ورمزية. ويتوجب على الممثل المبتدئ الطموح الذي اختاره مدير الفرقة لتأدية دور

روزاليندا، أن يتصرف وكأنه طفل: «لكي يواسي صديقه المتأثر لغياب جميلته [....]، فقد نجح في أن يستشعر في داخله شيئا ما يشبه ثلاثة أشخاص يواجه كل واحد منهم الآخر. لأن الفتاة التي ترتدي لباس الرجال، إن أردنا تعقيد الأمر كله، قد أحبت الطفل الذي خدعته، ولم يتعرف عليها في لباسها وفي نسختها الرجولية» (م. يورنسار1982- 219، 220).

وطرق الباروك في التنكر، الأنجانو Engano، وفي الازدواجية بارعة في تجسيد خداع المظاهر، وفي الدعوة إلى الارتياب الذي توحي لنا به تلك المظاهر. أليس الجنس، الذي يظهر محددا لهويتنا، مجرد خاصية للفرد بما هو إنسان مشابه لبقية النوع الذي ينتمي إليه؟ تسعى لعبة تغيير الجنس بالخصوص إلى تهميش هذه الخاصية التي تساهم عادة في عملية تحديد الهوية. ويمكن للشاب لازار بفضل العرض المسرحي أن يمثل دور الرجل والمرأة وينتقل من دور إلى آخر، فهو يمتلك القدرة على التحول إلى فتاة، لأن «على الفريق أن يعوض في مهلة قصيرة الفتاة الأولى التي كانت دائما، كما نعلم، مراهقا أو طفلا متنكرا» كما تقول يورسينار في الخاتمة (م. يورنسار1982- 219، 220).

تميل هذه الازدواجية إلى حذف التغيير عندما تتطلب شخصية الفتاة التنكر في زي الطفل، فهي تخفف من اختلاف الأجناس من خلال استعادة لازار لهويته الجنسية الذكورية عن طريق خداع مضاعف.

ختاما، فإن التعارض بين ذكر- أنثى يتقلص إلى تعارض شكلي في العبارة: «... كان جميلا عندما كان كليوباترا» (م. يورنسار 1982-228،)، التي تجسد طريقة التداخل بين الجنسين وذلك عبر التقارب القوي بين النوعين.

كسرت يورسينار عن قصد الحدود بين الأجناس عن طريق استعارة المسرح مبينة أنّ الشرط الجنسي لا يرتبط بالهوية الحقيقية إلا ارتباطا خفيفا، وأنّ هذا الشرط لا يكفي لتعريف الكائن البشري .

7– الماء الجاري :

الجريان استعارة أخرى تأتي لتعزز ظاهرة محو الحدود والأشكال. فإذا كان الماء يحضر في الكيمياء السوداء **Oeuvre au noir** ويحفز الذوبان الضروري لتحويل المادة في تجربة الرواق عند زينون، فإنه يظهر كذلك، في رسالة أدريان، في شكل صورة تعبر عن صعوبة وصف الإنسان لذاته ورؤيتها كما هي عليه. فكيف نعيد بناء أسس الشخص وسماته وخصائصه ودلالة أفعاله وكل ما يرتبط بهويته الحقيقية، في ظل فوضى الإنسان التائه في حركة لا منتهية؟ يدرك الإمبراطور صعوبة مشروعه نظرا إلى الغموض الذي يسود بحث سيرته الذاتية: «إنني أرى في هذا التنوع وفي هذه الفوضى حضور شخص، غير أن شكل هذا الشخص يبدو بشكل شبه دائم موسوما بقوة الظروف. فهو غير واضح مثل انعكاس صورة شخص على صفحة الماء» (م. يورنسار 1974-33)

ويعكس المجال البحري الذي عاش فيه ناثانيال أواخر حياته رؤيته للعالم، مثلما يعكس الصورة التي كونها عن نفسه. ففي هذا الفضاء الممتد بين السماء والماء «كل شيء متموج أو منبسط، أرض أو ماء [....]،

السحب ذاتها تتمايل كأنها أشرعة السفن» (م. يورنسار 1982-184). وتبدو العناصر متحركة وبلا شكل: «الأحواض التي خلفها البحر» نفسه 187، «مساحات الضباب المنبسطة»، نفسه 193، زبد البحر الأبيض» نفسه-194، «الكثبان التي تموج في اتجاه البحر» نفسه-205، كل هذه العناصر ترمز إلى الحركة الدائمة التي تمحو المعالم وتخفي الأشكال. ولم تكن الشخصية قادرة على تعريف ذاتها عندما حاولت ذلك بالرجوع إلى ماضيها «حاولت جاهدة تقييم ماضيها الشخصي، وفشلت، إذ لم تكن ترى نفسها» نفسه-197 .

وتتكرر الاستعارة نفسها في مقاطع متعددة من قصة صبح جميل، إذ ينعش المطر الخفيف اليوم الأول، ويدخل الأحداث في جو ضبابي ورطب، ويسدل على الأشكال حجابا يطمس وضوحها. وفي نهاية القصة يمزج الطفل، الذي بين اليقظة والنوم، الخيال والحقيقة في تفكيره الحاضر والمستقبلي. ويظهر هذا التداخل بشكل قوي في الرؤية المضطربة للعالم الخارجي المختفي وراء حجاب الأمطار :

«يختلط كل شيء في هذه الغفوة: وقع الأمطار على السقف (يقطر القليل من الماء على الغطاء)، [...] وتنفذ من الزجاج الحشرات، ومساحات السماء الصافية الجميلة، والأطعمة الشهية التي سيخصص كبير خدم السيد بريديرود جزء منها بالتأكيد للممثلين» نفسه 236-237 .

ولا يقدم لنا لازار في وضع محدد، بل يقدم في وضعية تكوين شامل لهويته، وفي لحظة يكون فيها كل شيء ممكنا، وتمنحه فيها الحياة اختيارات متعددة. فهو لا يعدو أن يكون عجينة قابلة لإعادة التشكيل، إنه طين مبلل يمكن أن يتخذ شكل قوالب أخرى .

8- متغير، متعدد، مختلف الأشكال :

وهكذا، فلا شكل موحد لهويتنا مطلقا، فهي تتخذ أوجها متعددة قابلة للتغيير على مدى الحياة، وهو ما يفسر الطابع المتغير للكائن البشري، ومن هنا ينبع الشعور بـ«اللا حقيقة» الذي عبرت عنه يورسينار عند حديثها عن «هذه الذات المبهمة والفضفاضة» محيلة على ذاتها في خطاب استقبالها في الأكاديمية الفرنسية، أو في تأكيدها على أن شخصياتها تبدو حقيقية أكثر من شخصها ذاته: «إنها حقيقية أكثر من ذاتي التي تتغير وتمضي وتتحول، غير أن الذات في شخصياتنا أسرع في ذلك مثلما هو الحال في مادة طيعة» (م. يورنسار 1980-241).

تحضر الوضعية ذاتها عند أدريان الذي يرسم لنفسه الوجوه الألف التي تبناها تباعا. ويبدو هنا أن الهوية تتشكل عبر رؤية الآخر وحضوره، إنّها وليدة الغيرية ولا يمكن أن تنمو إلا في علاقة مع الآخر. يعي أدريان ذلك عندما يدرك «رغبته الدنيئة في الاستمتاع بأي ثمن، وفي لفت انتباه الآخرين *إليه*» (م. يورنسار 1974-65). ويدرك في الوقت ذاته التعقيد الأقصى لحركته وسلوكه :

«سادت بداخلي بشكل متناوب شخصيات متنوعة، ولا أحد سكنني لمدة طويلة [...] وهكذا أسكنت الضابط الدقيق المهووس بالانضباط [...] وإله الأحلام الحزين، والعاشق المستعد لكل شيء في سبيل لحظة توهان، والملازم الشاب المتجبر [...] دون أن ننسى المجامل الوضيع [...] والرجل اليافع الذي يعطي بثقة مثيرة

للسخرية جوابا قاطعا لكل الأسئلة، والمتحدث الجميل والطائش [...]، والجندي، ونذكر كذلك هذه الشخصية الفارغة [...]، وكذلك أنا وكل الآخرين [...]، ليسوا جميعا سوى إطار [...]، مسير فرقة أو مخرج مسرحي» نفسه 65-66 .

لا يمدنا ناثانيال بهذا الزخم من التدقيقات، إنه أكثر بساطة وأكثر شفافية ولا يكاد يهتم بنظرة الآخرين إلا بقدر اهتمامه بنظرة الحيوانات، ولا يدرك حتى أنّ له هوية خاصة، فهو يشعر أنه مخترق من جميع الذين عرفهم وشكلوا ماضيه، «لم يكن ماضيه تحديدا، إنما، فقط، أشخاصا وأشياء صادفها في طريقه» (م. يورنسار 1982-197). لقد لاحظ أن الصدفة والعادة هما اللتان صنعتا منه ما هو عليه، وأنّه لا يختلف فعليا عن باقي المخلوقات، وأن أناه تذوب لتندمج في الكون: «لم يشعر، مثل عدد كبير من الناس، بأنه إنسان في مقابل الحيوان أو الأشجار، بل أخا للأولين وابن عم عال للآخرين» نفسه 197-198 .

وأما زينون، فقليلا ما يحلل نفسه. لقد ترك مشروع كتابة هذا المنفرد الحر **Liber Singularis** حيث دون بشكل دقيق ما يعرفه عن رجل لم يكن سوى زينون نفسه: مزاجه وسلوكه وأفعاله المعلنة والسرية، الطارئة أو المتعمدة، وأفكاره وتأملاته كذلك» (م. يورنسار 1968-179.). فمادة الأنا الغنية تنفلت منه، وتحمل دراسته لذاته بعض المزالق التي ليس أقلها انطواؤه على نفسه أو سقوطه في خطيئة الكبرياء.

ويجدر بهذه التأملات أن تلتقي جميعها في فكرة الانسان بصفة عامة. الانسان الذي لا يتغير على مدى القرون: «أنا أعلم، يقول زينون، أنه يخطئ ويزيغ وغالبا ما لا يصيب في تأويله للدروس التي تمنحها له الحياة. ولكنني أعرف كذلك أن بداخله ما يمكنه من التعرف على أخطائه الشخصية وتصحيحها أحيانا» نفسه-117. فمن هو الشخص المسمى زينون، بالنسبة إليه، إن لم يكن مجموعة من الخبرات: «... أعماله ومغامراته وتأملاته ومشاريعه التي دامت ثمانية وخمسين عاما» نفسه 259-260. فالإنسان، طيلة مسيرة حياته، يعرف تحولات تلازمه إلى الأبد، فلا يبقى هو ذاته بل يصير آخرا. لقد وجد زينون نفسه، بعد أن قضى ليلته السوداء متغيرا وكأنه قد تطهر، إذ لم يعد يفكر في نفسه وإنما وهبها للآخرين وكرسها لمعالجة المرضى في دور الرعاية .

غير أنّه يظهر ذاته في مناسبتين بالانفصال عنها ورؤيتها عن بعد، الأولى في سجنه عندما بدت له صورة طفل على شاكلته، كنوع من الأنا الأخرى بتعبير الفريد دي موسي، تمثله أخا أو ابنا أنجبه خلال إقامته عند سيدة جزيرة فروزو: «كان الضيف الذي يراه يوميا، طفل في العاشرة من عمره جميل وحزين، وكان يقيم داخل الغرفة. كان ملتحفا بالسواد [....]، كان هذا الطفل يشبهه غير أنه لم ينشأ في شارع أولين aux laines نفسه 280

بعد ذلك، وبعيد وفاته، تمثل ذاتا أخرى شهدت معاناته الأخيرة: «شخص آخر، ليس شخصه طبعا، كان يبدو جالسا إلى الوراء قليلا من يساره، ولا يبالي بسكرات موته» نفسه-321. يبدو لي أن هذا الازدواج الواعي للشخص قد سلّط الضوء على رغبة الشخصية في الفهم الواضح للأمر .

9- الواحد والمتعدد في ذاتي :

مثَّلَ لازار الشخصية ذات الصور المتعددة والقادرة على تشخيص كل الهويات والتحول في كل مرة إلى شخص آخر، إنّه الشخصية الأكثر تمثيلا لفكر يورسينار بدون أدنى شك. يأخذ هذا النص الروائي الأخير شكل شهادة ذات طابع إيديولوجي لأنه يظهر بوضوح نزعة إنسانية أثيرة لدى الكاتبة في نهاية حياتها. فإن كانت قد اختارت شخصا شابا في الثانية عشر من العمر، فذلك من أجل أن تظهره بريئا، مهيئا ومنفتحا على جميع الاحتمالات التي يمكن أن تهيا له الحياة.

إذا كان زينون أو أدريان أو ناثاليان قد أعادوا النظر في ماضيهم بهدف استكشاف ذواتهم، فإن لازار، في تخيلاته، يرى مستقبله وكل هذه الحياة التي تنتظره. هذه هي فكرة القصة الرئيسة كما أوضحتها يورسينار في الخاتمة: «الأساس أن الطفل لازار لا يعيش مسبقا حياته، فقط، وإنما يعيش كل حياة» (م. يورنسار 1982-263).

ويصعب هنا تعداد جميع الشخصيات التي يعتزم أن ينزاح من خلالها لازار إلى المستقبل. ولا حدود للازار مثله مثل هربرت مورتيمر، الممثل الكبير الذي يمكنه أن يترجم أي دور، إنه مرتبط بالبعد الإنساني في شموليته: «ويمكن للازار أن يكون كذلك كل هؤلاء الفتيات، وكل هؤلاء النسوة، وكل هؤلاء الأشخاص الشبان وكل هؤلاء الشيوخ» نفسه 228. إنه عينه والآخرون في الوقت نفسه، إنه الواحد والجميع: واحد ومتعدد في ذاته. ويمكنه أن يتبنى جميع الأشكال الإنسانية، فهو يحس نفسه بروتيوس: «كان الشاب لازار بلا حدود، كان بلا شكل، كان له ألف شكل» نفسه 231 .

يأخذ هذا العرض التخييلي كل معناه إذا تأملنا في إمكانات الانسان اللانهائية في حياته كلها. وليس على هذا الأخير أن يقبل فقط التحولات التي ستبني هويته بل عليه أن يرغب فيها. وهذا البناء البطيء يتم عبر الآخرين. وهكذا فإن الآخرين يعبروننا ويشكلون جزء من كينونتنا، وهو ما يسمح لنا بمعرفتهم وبمعرفة ذواتنا نفسها .

تطلعنا قراءة صبح جميل على الكثير بخصوص رؤية يورسينار الشخصية لأنطولوجيا الهوية، تلك التي أرادت أن تجسدها في أصغر شاب من شخصياتها، ومع أنها كتبت في مسودة ذكريات أدريان: «الجوهر والبنية الإنسانية لا يتغيران» (م. يورنسار1974-333،)، وكتبت في العيون المفتوحة **les yeux ouverts**: «إننا متشابهون ونسير نحو النهايات نفسها» (م. يورنسار1980 -21،)، فإنها كتبت بالمقابل «تعبرنا الإنسانية كلها، وتعبرنا كل حياة» نفسه 222. وأكدت أن لها: «الانطباع بكونها وسيلة عبرت من خلالها تيارات وذبذبات» نفسه-283.

إن تصور الهوية هذا، بوصفها عبورا ونقطة التقاء، أخذا وعطاء، هو ما دفع الكاتبة إلى إثارة «الجماعة المجهولة التي خلقنا منها» و«الجزيئات الانسانية التي أنشئنا منها منذ أن ظهر على الأرض من يسمى بالإنسان» نفسه 216 .

المراجع:

1- كلود بينوا، عندما يكون الأنا أخرا مجلة RELIEEF، العدد 2، يوليو 2008 ص:145-160.

2- Benoit, C., 2008. Quand \"je\" est un autre. À propos d'Une belle matinée de Marguerite Yourcenar. *RELIEF - Revue Électronique de Littérature Française*, 2(2), pp.145–160. DOI: http://doi.org/10.18352/relief.150.

3- Erik Erikson, 1972, Adolescence et crise. La quête de l'identité, Paris, Flammarion.

4- Jean-Paul Sartre,1996, L'Existentialisme est un humanisme, Paris, Gallimard.

5- Lévi-Strauss ,1977, L'Identité, Paris, PUF.

6- Marguerite Yourcenar, 1974, Mémoires d'Hadrien, Paris, Gallimard.

7- Marguerite Yourcenar, 1968, L'Œuvre au noir, Paris, Gallimard.

8- Marguerite Yourcenar, 1982 Comme l'eau qui coule, Paris, Gallimard.

9- Marguerite Yourcenar, 1980 Les Yeux ouverts, Paris, Le Centurion.

10- Marguerite Yourcenar, 1982 Comme l'eau qui coule, Paris, Gallimard.

11- Marguerite Yourcenar, 1982 Comme l'eau qui coule, Paris, Gallimard.

12- Marguerite Yourcenar,1974, Souvenirs pieux, Paris, Gallimard.

13- Marguerite Yourcenar, 1977, Archives du nord, Paris, Gallimard.

14- Paul Ricœur,1990, Soi-même comme un autre, Le Seuil.

15- Ronan Le Coadic, 2007 « Faut-il jeter l'identité aux orties ? «, dans Le Coadic, Ronan (dir.), Identités et société de Plougastel à Okinawa, Presses universitaires de Rennes, (41-46).